فى الشعر الســــودانى

الأخلاق والعادات

للاستاذ على العمارى

— ٨ —

لست فى حاجة إلى أن أؤكد هنا ما قلته مرارا من أنى لا أقصد من تصوير أدب الأمة لحياتها أن يكون – فقط – سجلا تصور فيه مناظرها الطبيعية، أو مشاكلها السياسية، أو تحصى فيه عاداتها وأخلاقها وتقاليدها، وإنما أقصد أن يتأثر الأدب بهذه الظواهر فى الأمة، فيجرى فى أوصاله ما تعكسه هذه الأمور من شمائلها، وما توحيه إلى أنفس الشعراء من خصائصها، فالأخلاق التى توجه الأمة، والعادات التى تذيع فيها، والخرافات التى تسيطر عليها، كلها ذات انعكاسات نفسية، لا مندوحة من ظهورها فى الأدب – ان صدق الأدب – ونحن حين ننظر فى الأدب لنحكم عليه بالتخلف أو النجاح، وبالتقاليد أو الاصالة، من واجبنا أولا أن نتفهم جيدا ما يحيط بهذا الأدب من شتى الاتجاهات والمؤثرات

وإذا كان الباحثون فى الأدب العربى يجعلون أول همهم حين يفصلون تصوير الشعر العربى للحياة الاجتماعية عند العرب أن يعددوا ما ورد على ألسنة الشعراء مما يعد تسجيلا لعادات قومهم فاننا نجمل هذا آخر همنا وننظر أولا فى المظاهر العامة للأدب. ونرى هل تأثرت فى اتجاهها ببيئتها وانحرفت عن السبيل، وظهرت فيها خصائص بيئات أخرى، ولنضرب لذلك مثلا :

من أبرز الأخلاق التى يمتاز بها عرب السودان البطولة والجلادة، والصبر على المكاره، وقد اتخذت هذه الصفات مظاهر متعددة، وبدت فى أشكال مختلفة، فمن أكبر العار عند العربى السودانى الفرار من الميدان، وهو يقاتل مادام النصر يتراءى له؛ فاذا تأكد الهزيمة لم يول ظهره ولم يقاتل قتال المستميت بل يلقى فروته على الأرض ويجلس عليها رابط الجأش، ثابت النفس حتى يقتل أو يؤسر، كما فعل الملك جاويش الشايقى الكبير عندما تغلب عليه بشير ملك الخندق. كان فرسان الشايقية يفتخرون بأنهم يفترشون (فراويهم) إذا بدا لهم أنهم غلبوا، وكما فعل الملك عمر عندما تغلب عليه الترك فى واقعة النصوب فانه ترجل عن جواده، وجلس مفضلا الموت.

ومن العار الذى لا يمحى، ويبقى سبة للرجل وأولاده من بعده يعيرون به، أن ينطق المريض مهما اشتد مرضه بكلمة تدل على تألمه، أو يبدى المضروب أقل توجع مهما اشتد عليه الضرب أو يظهر على السوق الى القتل أقل جزع أو خوف. وقد حدثت بأحاديث كثيرة فى هذا الشأن، فقد ذكروا أن جماعة من الجوعية حكم عليهم بالاعدام وكانوا يساقون إلى المشنقة واحدا واحدا، فجلسوا يلعبون (السيجة) وهم ينتظرون نوبتهم فى القتل، وكان الجلاد يأتى فيأخذ أحدهم للقتل، ويبقى الآخرون مستمرين فى لعبهم دون أن يبدو عليهم أى ذعر أو خوف ... وهكذا حتى قتلوا جميعا.

وحدث أن بعض الفرسان سيق إلى المقصلة، وكان مكانها بعيدا، وقد أبى أن يمشى مقيدا، ولكن القيد كان من النوع المفرغ، فلا يمكن فكه، فأيئسوه من فك قيده، فطلب أن يقطعوا قدمه ففعلوا، وجعل يمشى وما رؤى عليه أى تأثر

ومن العار أن يرفع الانسان صوته بالأنين والتوجع فى حادث من الحوادث حتى لقد تجرى لأحدهم عملية جراحية دون تخدير ومع ذلك لا يرتفع له صوت، رأيت مثل ذلك فى مثقفيهم، وتأكد

من تمثيلية جرت وقائعها فى حانة دراكتوس. وأبطال هذه التمثيلية هم محمد المويلحى المصفوع ووالده ابراهيم والصافع محمد نشأت وصاحب المؤيد مع نفر من أصحابه وقد ظهرت عليهم دلائل الفرح والسرور بما وقع على المويلحى. ثم يظهر فى هذا المشهد صاحب الحانة معجبا بصدغ المصفوع ويقترب من هذا الصدغ ويتأمله فى شىء من الغبطة.

وهذا من غير شك صورة جديدة فى فن الهجاء لم تعرف من قبل.

محمد سيد كيلانى

٢٤ ـ ٥ ـ ٣٥

لى من مناقشتهم طويلا فى هذا الشأن ، ولقد قلت مرة لأحد المترفين : ماذا تفعل لو ضربت عشرين سوطا ؟ قال : أتألم أشد التألم ، قلت أما ترفع صوتك بالتأوه والأنين ؟ قال : لا . لا . (الكوراك) لا سبيل إليه . (والكوراك : رفع الصوت)

ومعروف من عاداتهم فى (البطان) أن الشابّ اذا أعجب بفتاة ووقع حبه فى قلبها نزعت من معصمها سوارا ، وألبسته اياه ، فيأخذ الشاب إذ ذاك سوطه ، ويهزه فوق رأسها ويقول : (أبشرى بالخير أنا أخو البنات عشرة) فاذا كان له بين الحضور منافس فى حب الفتاة ورأى سوارها فى يده انبرى له وطلب مبارزته فيقف له حامل السوار واضعا يده اليمنى فوق رأسه فيجلده بسوطه إلى أن يكل فيرمى السوط فيجلده حامل السوار فى نوبته بما أعطى من قوة ، ويقف المضروب فى حالة الضرب جامدا لا يتحرك ، ولا يطرف له جفن كأنه صخر أصم ، ومن بدت عليه ظواهر التألم بل من بدت منه أقل حركة كهز الكتف أو طرف الجفن ، لبس العار ، ولم يعد له فى البنات نصيب

بل قد حدثت بما هو أبعد من هذا ، حدثت أن سيدة أبت أن تقوم فى مأتم أخيها ، أوتقف على قبره ، لأنها رأت فى وصيته ضعفا وخورا لم تحبهما فيه ، رأته يوصى بأن يدفن بجوار قبر ولى من الأولياء ، ولا يدفن فى مقابر أهله وعشيرته ، فقالت لاأبكيه! أيخاف من النار وأبكيه ؟!

هذا الخلق لابدّ أن يظهر أثره فى الشعر ، والا كان الشعراء يعيشون مع قوم آخرين فليس طبيعيا أن نرى الأنين والبكاء والتوجع والتأوه فى الشعر السودانى ، وانما الطبيعى أن نرى التسامى على حوادث الدهر ، والسخرية بتقلبات الأيام ، والنفور من الضعف والهوان . واذا كان للشعراء فى أى جهة أخرى أن يسهروا الليل وأن يعدوا النجوم ، وأن يلطموا الخدود ، ويشقوا الجيوب فى سبيل محبوبة هاجرة ، واذا كان لهم أن يشيعوا موتاهم بالعويل ، وأن يتلقوا حوادث الأيام بجفن باك ، وقلب واجف ، وصبر متخاذل ، فأنه ليس للشاعر السودانى الا أن يقول كما قال ابن سناء الملك :

ولو مد نحوى حادث الدهر كفه ... لحدثت نفسى أن أمد له يدا

فليس من الطبيعى أن نقرأ للشاعر شيئا من هذا إلا حين يقسى نفسه وقومه ، كقول الشيخ عمر الأزهرى :

سلا عن فؤادى مسبلات الذوائب ... فقد ضاع من بين القلوب الذوائب
فلا سلمت نفسى من الحب قد خلت ... ولا كان جفن دمعه غير ساكب

ولا أن نقرأ للشيخ أحمد الرضى :

لقد آن أن أبكى وأبكى البوا كيا ... وأنظم من حب الدموع المراثيا

ولكن من الطبيعى جدا أن نقرأ للشاعر عبد النبى مرسال هذه الأبيات

أنا ان عضنى الزمان بناب ... ودهانى الزمان يوما بفرس
وبلتنى الخطوب من كل نوع ... ودهتنى الكروب من كل جنس
ان لى كالحديد عزما ونفسا ... لا تفل الخطوب عزمى ونفسى

ومن الطبيعى أن يفتخر الشاعر السودانى بالبطولة والشجاعة وأن يتمدح بها ، وأن يمدح حين يمدح بها ويهجو إذا هجا بالجبن والضعف والفرار يوم الزحف ، وأن تظهر عواطفه فى مثل هذه الأبيات :

ألقى بصبرى جسام الحادثات ولى ... عزم أصد به ما قد يلاقينى
ولا اتوق لحال لا تلائمها ... حالى ، ولا منزل اللذات يلهينى
ولست أرضى من الدنيا وان عظمت ... الا الذى بجميل الذكر يرضينى
وكيف أقبل أسباب الهوان ولى ... آباء صدق من الغر الميامين

واذا كان أهل السودان يعدون الكرم من أكبر مفاخرهم والبذل من أحمد سجاياهم ــ وهو كذلك ــ فبدهى أن تظهر هذه الحضارة النبيلة فى الشعر ، وأن تأخذ مكانها اللائق بها ، وكثيراً ما نقرأ لهم الأبيات الجيلة فى التمدح بالكرم ، والافتخار بالجود كما نجدهم إذا هجوا كان من أبلغ الهجاء عندهم أن يصفوا الرجل بالشح ، وأنه لايؤدى واجب أضيافه ، وكما نجد هذا فى الشعر المعرب نجـــده فى الشعر العا ى ، ويعجبنى قول امرأة ترثى زوجهـــا .

بى عبدو ، بى خادمو . للدهر العيش موروادمو
يكفى الضيف ، ويقادمو .

فهى تصف زوجها بالسيادة ، وأنه صاحب عبد وخادم ، ثم تدق فى الوصف ، وتبلغ فى التعبير وتنبل فى المعنى ، فتصف زوجها بالبذل والانفاق ، وانه يعطى مالديه ، وإذا كان البخلاء يختزنون

العيش مخافة حوادث الدهر ، وتقلبات الأيام ، وإذا كان ظنهم فى الله سيئاً فان زوجها رجل لا يخاف إلا البخل ، ولا يهرب إلا من قالة السوء ، ولا يحسب حسابا للدهر والأيام ، فهو لم يردم العيش ويخزنه خوفا من الدهر (للدهر العيش موورادموا) ثم تتحدث عن مظهر من مظاهر الكرم فتصف زوجها بأنه يكفى الضيف ، وهذا لباب الكرم ، ومع ذلك لا يقصر فى الاكرام فهو يودع أضيافه إلى مسافة بعيدة على عادة الكرماء وعبرت عن ذلك ابسط تعبير (يكفى الضيف ، ويقادموا) كما يعجبنى رجل من البطاحين :

من منا ولى منا   كذبوا القالوا مثلنا
يكفى مراره فيسلنا   ويصد القوم عاطلنا

فهو يفتخر هنا بنسب قومه ومكارمهم وشجاعتهم ويقول : انه لا يساميهم أحد ومن قال انه مثلهم فقد كذب ، ويسكن البطاحين بين الجمليين والشكرية ، الجمليون شمالهم ، والشكرية جنوبهم ، أو على تعبيرهم الشكرية فى الصعيد ، والجمليون فى السافل ، وهو يقول : من هنا والى هناك يقصد الجمليين والشكرية يكذب من يقول انه مثلنا ، ثم أخذ يصف قومه بالكرم فقال : يكفى مراره فسلنا ، والفسل البخيل ، ويكفى مرارة اشاره إلى العادة المعروفة فى السودان وهى أنه إذا نزل أضياف برجل وكان كريما ذبح لهم ، وللدلالة على أنه ذبح يقدم لهم أول ما يقدم الكبد والطحال والكرش ، وتؤكل نيئة ، يرون فى ذلك دلالة على نهاية الكرم ، ويعبرون عن هذا الطعام (بالمرارة) والشاعر البطحانى يقول : ان بخيلهم يبلغ به الجود إلى درجة أنه يكفى الأضياف ويذبح لهم حتى يبلغ حد الكرم ، وإذا كان بخيلهم يقوم بحق الاضياف ، فضعيفهم يصد الجيش المغير ، وهذا نهاية المدح والافتخار

والحق انى شديد الاعجاب بهذا الشعر البدوى ، وهو عندى أصدق لهجة ، وأقرب إلى الواقع من الشعر المعرب .

أما تسجيل الشعر للعادات ، فالمطلع يجد كثيرا من هذه العادات فى الشعر السودانى ، ولاسيما العامى منه ، وسأقتصر هنا على بعض تلك العادات ؛ فمن العادات الشائعة فى السودان أن يلبس النوادب لباس الحرب الميت ويحملن آلاته التى كان يستعملها فى القتال، تتقلد واحدة من قريباته سيفه وتلبس أخرى جبته أو عمامته ، ويدرن بها كيات فى ساح الدار ، ولا يعمل هذا العمل الا للعظماء من الرجال ملوكا كانوا أو محاربين ، وقد يستمر هذا خمسة عشر يوما ، والشاعر السودانى يذكر هذه العادة فى معرض الحسرة والألم على ما صارت اليه حال قومه ، فهو يبكى على زمن مضى كان السيف فيه فى يدى البطل يدافع به عن حوزته ويدفع به فى صدر عدوه ، فعدا الزمان وسلب السيف من يديه ووصفه فى يد الناعية ، فأصبح لا يرى إلا فى يدها ، والخوذة ويسمونها (التريك) لا ترى إلا على رأسها :

كأن الزمان برغم الزما   ن أمسى تبيعا لسلطانيه
غفرت له وهو ذاك الفتى   فكم ناشئ بيد عاتيه
عدا فاستباح دروع الكما   ة فلف بها رمما باليه
وخلى التريك وهز البوا   تر حبساً على القادة الناعية

والشعوذة والدجل، وضرب الرمل، وطرق الحصى، والودع كثير فى السودان، والناس يؤمنون بكثير من هذه الضلالات ، ولا يفوت الشعراء أن يحدثونا عن صاحبة الودع ، وأن يصفوا لنا ما يفعله الحاوى ، ويجرى على ألسنتهم ذكر التعاويذ والتمائم ، ومن ذلك ما يقوله التيجانى يوسف :

عوذوا الحسن بالرقى وخذونى   أنا تعويذة لكعبة روحى
قربوها مجامرا أنا وحدى   عوذ للجمال من كل روح
احرقونى على يديه وشيدوا   هيكل الحب من فؤادى الذبيح
واعصروا قلبى الفزع للحسن   أمانا وعوذوه (بنوح)

والمجامر فى الحياة السودانية شأن أى شأن ، فليس يخلو منها بيت من البيوت ، يوضع فيها البخور حيث تتطيب به النساء والتيجانى يشير إلى ذلك حين يقول :

وليلة من جمادى   فى مثل روعة شهره
دوحت والحسن حولى   إلى خبيئة سره
ورحت أحرق نفسى   على مجامر عطره
أذبت من خمر روحى   على يديه وثغره
بقية من ربيع   شقيت وحدى بزهره

ومن عادة الزوجة فى السودان ألا تخاطب زوجها باسمه بل تدعوه بأسماء أخرى وتتحاشى طوال حياته أن تناديه باسمه ،